(تفسيرُ الشَّيخِ البرَّاك)

القارئ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران:٣٣-٣٦]

الشيخ: إلى هنا، لا إله إلا الله.

يُخبِرُ -تعالى- عن اصطفائِهِ لهؤلاءِ الأشخاصِ من الأنبياءِ وهذه الأُسَرِ الكريمة، أُسَرٌ كريمةٌ، آدمُ أبو البشر مُصطفًى، {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ} فهو من المُصْطَفَيْن، {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آَللَّهُ} [النمل:٥٩] وهو نبيٌّ -عليه السلام- أُبْتُلِيَ بالشيطانِ وابتُلِيَ بالأكلِ من الشجرةِ، ولكنَّهُ قد تاب، {اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه:١٢٢] واصطفى نوحًا -وهو أبو البشريَّة الثاني- فإنَّ جميعَ بني آدم بعد نوحٍ هم من ذريَّته، {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} [الصافات:٧٧] هو الأبُ الثاني -عليهما السلام-.

{وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ} آلُ إبراهيم يشملُ إبراهيمَ وذُريَّتَهُ وأتباعَهُ، {وَآَلَ عِمْرَانَ} كذلك، وآلُ عمران هم من آلِ إبراهيم، فهم مِن بني إسرائيل، عمرانُ من بني إسرائيل، {وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} اصطفاهُم وفضَّلَهُم على العالمين، وهذا فضلٌ عظيمٌ أنْ يذكرَ اللهُ اصطفاءَهُ لهُمْ واختيارَهُ لهم وتفضيلَهُ لهمْ بكلامٍ يُتْلَى أبدَ الدهرِ، {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} بعضُهم من بعضٍ، هذه السُّلالاتُ الكريمةُ بعضُهم من بعضٍ نسبًا ودينًا وصلاحًا وخُلُقًا، {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

ثمَّ ذكرَ قصةَ امرأةَ عمران، وأنَّها نَذَرَتْ ما في بطنِها مُحَرَّرًا خالصًا، {إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} قال المفسِّرون: إنَّها نذرَتْ ما في بطنِها ليكونَ خادمًا لبيتِ المقدس.

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} قال الله: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} وهذا أمرٌ مُستقِرٌّ في الفِطَرِ أنَّ الذكرَ ليس كالأنثى، فالذَّكَرُ يتميَّزُ بالقوةِ وبرجاحةِ العقلِ، المرأة ناقصةٌ بالنسبةِ للرجل، وضعيفةٌ بالنسبة لقوةِ الرجلِ على الشؤونِ وعلى الأعمالِ وعلى الأمور الكبيرة ولهذا قال الله:

{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ} [النساء:٣٤] خلافُ ما يتكلَّمُ به أهلُ العصرِ في هذا العصرِ من تعظيمِ أمرِ المرأةِ، ويَكَادُونَ يقولون: إنَّها أفضلُ من الرجلِ، بلْ بعضُهم يقولُ: أنها أفضلُ من الرجلِ، وهذا خروجٌ عن مُوجَبِ الفطرةِ والشرائعِ، {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}.

قالَ اللهُ عن امرأةِ عمران: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}، وقد أحسنَتْ إليها وإلى ذُرِّيَّتِها بهذا التَّعويذِ، عَوَّذَتْهَا عند وضعِها، {إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى .. وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} فعصمَهُم اللهُ، مريمُ صارتْ صِدِّيقةً، وذُرِّيَّتُها صار عبدًا ونبيًّا ورسولًا، ومن أسباب ذلك: هذا التعويذُ، {وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} يعني: كَفَلَهَا زَكَرِيَّا.

وذكر في آخر القصة أنَّ بني إسرائيل وأعيانَهُم وعلماءَهم تنافسُوا على كفالتِها وَاسْتَهَمُوا، فكانَ السَّهم..، وقعَ السهمُ لزكريا -عليه السلام- { وَكَفَّلَهَا} أي: جعلَهُ كفيلًا عليها، كفيلًا لها، وسيأتي قوله -تعالى-: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران:٤٤] كانوا يَخْتَصِمُونَ كلُّ واحدٍ يقول: "أنا أَكْفَلُها، أنا الكفيلُ عليها"، وكان من أمرِها أنها كانتْ فتاةً صالحةً تقيَّةً عابدةً، وزكريا هو زوجُ خالتِها، ولهذا كان عيسى ويحيى ابنَي خالةِ، ابنَي خالةِ، عيسى ابن مريم..، أو هو زوجُ أُختِها، فيكونان ابْنَي خالة.

{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} رزقٌ، كأنه شيءٌ غريبٌ أن يوجدَ عندها، {أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

السائل: [....]

الشيخ: نوحٌ، نوحٌ، الله أكبر، سبحان الله! {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا} مَن هو؟ إبراهيمُ ونوحُ قالَ الله: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد:٢٦]